سماء
بلا ضياء

حمدي، خولة.
سماء بلا ضياء : رواية /خولة حمدي

تصحيح لغوي : حسام مصطفي إبراهيم.
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2025.
492 صفحة، 20 سم.
تدمك : 978-977-820-267-0
ا– القصص العربية.
أ– العنوان : 813
رقم الإيداع : 33023 / 2024
الطبعة الأولي : يناير 2025.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

_____
كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم
هاتف أرضي: **0235918808**
هاتف محمول: **+201000405450 – +201001872290**
بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى **الناشرين**.
©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

خولة حمدي

سماء بلا ضياء

حجر الشمس

إهداء

إلى السكان الأصليين للعالم

(1)

اليوم الأوّل

السّماء.. لقد اختفت!

حين فتح عينيه، لم ير السماء.. كان ممدّدًا على ظهره، يتوسّد رأسُه فراشًا ناعمًا من الرّمال أو ما شابهها. بوسعه أن يشعر بالملمس الحبيبيّ الرّقيق يتخلل أنامله. كان مبتلًا، نصفه السّفليّ مغمور كلّيًا، منقوع مثل قطع المخلّل في الماء المالح، فيما تتحرّك الأمواج في مدّ وجزر لترتفع حتّى صدره ثمّ تنسحب.. يشعر بوخزات متفرّقة في قدميه، ربّما أصيب ببعض الخدوش التي جعلت الماء لاسعًا.

احتاج إلى حفنة من الدقائق، ربّما أكثر أو أقلّ، فلم يكن إحساسه بالوقت دقيقًا، حتّى يدرك أين هو.. إنّه على شاطئ ما، يذكّره هدير الأمواج -التي يتغيّر ارتفاعها، لكنّ همسها العميق ثابت مع اختلاف الشّواطئ- بذكرى ما من طفولته البعيدة، حين كانت عائلته تقيم في منزل على ساحل البحر. كان يفيق صباحًا على تلك النّغمة السّاحرة للماء وهو يضرب المسطّح الرّمليّ المتاخم له فيغمره الانتعاش ويمتلئ رغبة في الهرولة إلى الخارج.

يتخلّص ذهنه من سيطرة الذكرى التي تستحوذ على انتباهه لوهلة.. لقد نجا.

كان الهدوء من حوله مُربكًا باستثناء حركة المدّ المستمرة في لطم السّاحل على الوتيرة ذاتها. والسّماء، لم تكن هناك! كانت عيناه زائغتين إلى أعلى تدوران في محجريهما بخمول، تتفقّدان المساحة التي تعلو رأسه. لم تكن السّماء تشبه أيّ شيء عرفه في الدّيار، يعرف كيف يتبدّل الطّقس من صفاء وزرقة وشمس ساطعة إلى سحب متفرقة بيضاء ثمّ تتلبّد الغيوم في كتل رماديّة قاتمة تنذر بالأمطار والعواصف لكنّ ما ظهر فوقه في تلك الآونة كان مختلفًا.

ارتفعت فجأة موجة مندفعة وغمرت رأسه فشدّ جسمه المتصلّب ليستقيم على الفور وهو يبصق ويسعل مقاومًا الاختناق. حين استقرّ تنفّسه واستأنف الهواء مساره في مجراه الطبيعيّ رفع بصره ليتفقّد محيطه.. كانت الرّمال من تحته وخلفه ذات لون رماديّ باهت يشبه الفضّة، رَمَش في عصبيّة لكنّ اللّون لم يتغيّر، حتّى الماء عند قدميه وأسفل جذعه كان يتّخذ لونًا داكنًا لا يكاد يختلف عن لون الرّمال ولولا القوام السّائل لاتّحد المسّطحان في ضبابيّة مخاتلة، ويصنع الزّبد الأبيض -وهذا على الأقلّ لون طبيعيّ يعرفه- الحدّ الفاصل بين مساحات الفضيّ الشّاسعة. حرّك أصابعه خلال الماء ثمّ باعد بينها ليترك السّائل يتسلّل عبرها إلى الأسفل، تنهّد.. باستثناء اللّون بدت الكثافة والسّيولة ومفعول الجاذبيّة طبيعيًا للغاية.

على مبعدة عشرات الأمتار كانت غابة كثيفة من الأشجار الباسقة الدّاكنة تغلق مجال الرّؤية وتملأ الفضاء وتعانق السّماء؛ السّماء التي لم تكن مثل أيّ سماء أخرى.

كانت سحب خفيفة منخفضة تملأ الفضاء على مدّ البصر.. سُحب! هذا أقرب توصيف في معجمه لما يراه لأنّ ما يستقرّ في السّماء ويحجب الشّمس غالبًا ما يُسمَّى سُحبًا، لكنّ هذه السّحابة الضّبابية كانت مثل رقعة متّسعة منتظمة بلا ثقوب أو اختلافات في اللّون والسّمك والكثافة، وكانت قريبة، أقرب من أيّ سحب أخرى.. فكّر أنّه إذا ما انتصب واقفًا على أطراف أصابعه واستطال بعض الشيء فقد تلامس أنامله ندفها الرّطبة، يكاد يتخيّل ملمسها النّاعم على بشرته.

وهناك، على مسافة قريبة، تختفي قمم الأشجار عبر السّحابة الضخمة الممتدّة وتعانق نهايات أغصانها السّماء الخفيّة، تتطاول بحثًا عن قبس من نور في الارتفاعات الشّاهقة، ربّما كانت السّماء الحقيقيّة لا تزال هناك، فوق السّحابة، رغم كلّ شيء وربّما تتبدّد الغيمة في وقت ما وتظهر الشّمس والسّماء الزّرقاء، البيضاء أو الرّماديّة، التي يعرفها، لكنّ هذا لم يحدث بعد.

بعد ذهول اللّحظات الأولى دارت نظراته المتفقّدة في كلّ الاتّجاهات ثمّ توقّفت، حدّقت في تدقيق مستميت ثمّ أضاءت قسماته وقد تعرّف على كتلة داكنة لفظتها الأمواج في البعيد.. أجبر عضلاته المتيبّسة على الحركة وسحب قدميه، ثنى ركبتيه ثمّ استند إلى راحتيه ليدفع جسده نحو وضع الوقوف، احتاج إلى أكثر من محاولة أنّت خلالها كلّ قطعة عظام؛ السليمة منها والمتورّمة.. ثمّ تجرّأ على الخطو المترنّح بتأنٍّ شديدٍ أوّلًا، كانت الآلام محتملة ربّما لم يُصَب بكسور في نهاية الأمر! وحين اطمأنّ إلى توازنه تقدّم بسلاسة متزايدة مع تعوّد باطن قدميه الأرضيّةَ الرّخوة المبتلّة.

حين اقترب من الكتلة تحوّل مشيه إلى هرولة وقد تعرّف ملامحها المألوفة، انحنى فوق الجسد المسجّى وأخذ يهزّه برفق.

- أبي.. أبي!

خرج صوته متحشرجًا أجشّ فتنحنح ليجلو حلقه ثمّ استأنف النّداء بحرقة وهلع، انحنى ليُصغي إلى نبضاته؛ تلك الحركة الرّتيبة لصدره ارتفاعًا وهبوطًا كانت مطمئنة، إنّه يتنفّس، كان يحتاج إلى أن يُبصره مفتوح العينين حتّى يطمئن.

عجيب ذلك القلق الذي يسكن الصّدر في اللّحظات الفارقة كأنّ الشّخص الذي لم يكن مُهمًّا منذ أمد قصير قد غدا أهمّ الأرواح على سطح البسيطة! ألم يتمنّ بالأمس فقط لو أمكن لوالديه استبدال الأماكن: ليكون والده طريح الفراش وترافقه أمّه في رحلة استطلاعيّة ما؟ لم يكونا متقاربين قطّ لكنّه صار رجلًا غريبًا في السّنوات الأخيرة، لا يكاد يألف حضوره بالجوار حتّى ينطلق في «رحلة استكشافيّة» أخرى!

لقد تساءل: كيف؟ كيف يحمل ضميره وطأة الغياب مُخلِّفًا زوجة عليلة في مرحلة متقدّمة من المرض الخبيث وولدًا شبّ عن الطّوق ولّما يعرف أباه، ليبحر عبر المحيطات خلف وهم جزيرة أشباح ما؟ لكنّ خشية تحقّق أمنيته السّريّة تؤرقه في تلك اللّحظة وهو يشدّ بكفّه على كتفه آملًا في أن يفيق على الفور.

رمش الكهل ثمّ سعل وحين حطّت نظراته على وجه الشابّ المنحني فوقه افترّت شفتاه عن ابتسامة، كانت سعادتهما باللّقاء مشتركة، فكّر أنّهما لم يتشاركا لحظة تواطؤ وتقارب مشابهة منذ زمن بعيد، مذ كان الشّاب طفلًا!

استند الكهل إلى ساعد الشّاب ليطوي جذعه ويسحب أطرافه ويجلس على الشّاطئ، كان يلهث، لاحظ الشّابّ تنفّسه العسير وضيق صدره كأنّ الهواء في رئتيه أثقل، تلفّت الرّجل ليتفحّص الأرض التي لفظتهما الأمواج إليها ثمّ تألّقت في عينيه نظرة ظفر غريبة، قال بصوت هامس:

- آدم، بُنيّ.. لقد وصلنا!

***

خلال خمسة عشر عامًا بحث البروفيسور أشرف الصّافي عن الجزيرة.

بالتأكيد لم يكن بروفيسورًا طوال الوقت! لقد تدرّج في سلّم البحث الأكاديميّ ونشر الأبحاث تلو الأبحاث حتّى استحقّ الرّتبة والمكانة العلميّة لكنّ شغفه بالجزيرة لم ينقص يومًا، كانت «أطلانتس» الخاصّة به.

في بداية القرن السّادس عشر تقريبًا ظهرت جزيرة تحمل اسمًا يُنذر بالخطر لأوّل مرّة على خرائط العالم الأوروبية، بالقرب من سواحل «نيوفاوندلاند» و«لابرادور»: «جزيرة الشياطين»، وقد سُمّيت بهذا الاسم نسبة إلى الأرواح الشريرة التي يُعتقد أنها تسكن شواطئها، لم تكن إضافة منطقة جديدة إلى خرائط الملاحة ظاهرة نادرة فقد عكف رسّامو الخرائط الأوروبيون الأوائل في العصر الحديث على مراجعة مواقع الأراضي المعروفة والمُكتشَفة حديثًا باستمرار، بناءً على تقارير المستكشفين وطرق الملاحة الأكثر دقّة، وانضمَّت جزيرة الشياطين إلى مجموعة من المناطق الأقل ثباتًا من ناحية البيانات والإحداثيات والمعروفة باسم «الجزر الوهمية»؛ تلك المواقع رُسمت في وقت ما على أنّها مساحات أرضيّة حقيقيّة رغم عدم وجود أدلة مادّية على وجودها وبدلًا من ذلك كانت الأساطير والخرافات وحكايات البحارة والأساطير المحلية والسّراب والمبالغات والأكاذيب والإحداثيات الخاطئة هي التي أعطت شكلًا لخطوط هذه المساحات الهلاميّة.

لذلك، كانت الجزر الوهمية -مثل جزيرة الشياطين- تظهر وتختفي من الخرائط حين يرفض المستكشفون وجودها أو تتلاشى الأساطير من الخيال الجمعيّ. ربّما كان الاتجاه السّائد -حديثًا- لفهم رسم الخرائط كونها

صورة مجردة وموضوعية وثابتة للعالم لكن السّمة الأولى لذلك تاريخيًّا كانت تحويل حكاية ما إلى حقيقة.

وقد روى البروفيسور أشرف قصّته كثيرًا لكنّه لم يجد أذنًا مُصغية، لقد كان هناك، في المحيط الهندي، في مكان ما بين أرخبيل المالديف والسّواحل الإفريقيّة، وقد وضع قدميه على أرض صلبة ممتدّة لا تشبه في شيء أيّ أرض أخرى عرفها في سنوات ترحاله شابّا. لقد خاض تلك الرّحلة بنفسه وعاد سالمًا إلى الدّيار لكنّه لم يعثر على أدنى أثر لـ«جزيرته» الأثيرة على خرائط العالم؛ القديمة والحديثة!

لم يعتقد أنّ جزيرته كانت «وهميّة» بأيّ شكل من الأشكال فقد كان حضوره الذّهنيّ شديدًا وتجربته الملموسة قد تركت أثرًا لا يُمحى في وجدانه لكنّ قصّته ظلّت فرديّة، لم يجد في مراجع الأطلس وكتب تاريخ المستكشفين في القديم والحديث ذكرًا ولو عابرًا لجزيرة مأهولة، باسم أو دون اسم، في تلك المنطقة الجغرافيّة بالذّات.

بعض الباحثين الذين استشارهم في الأمر أشار إلى إمكانية أن تكون جزءًا من أرخبيل المالديف في نهاية الأمر غير أنّه بقي على إصراره: لقد أبحر اليخت ثلاثة أيام في اتّجاه الشّمال مبتعدًا عن «ماليه» العاصمة المالديفيّة، باتّجاه شبه الجزيرة العربية قبل أن يصل إلى اليابسة.

لم يعتقد، خلال البحث الذي دام سنوات طوال، أن يكون هو الشّاهد الوحيد الذي يعرف بوجودها، ولمّا تراكمت المراجع على مكتبه عن الجزر الوهمية أو المفقودة عبر التّاريخ اقترح عليه صديق ما، عابثًا، أن ينشر بحثًا أكاديميّا في الموضوع. ما بدأ كمزحة عابرة انتهى به إلى مسيرة بحثيّة طويلة متشعّبة ليكون واحدًا ضمن ثلّة -تعدّ على أصابع اليد الواحدة- متخصصة في مسار دقيق من البحوث الجغرافيّة، لقد حسب أن التخصّص

سيفتح المجال لمزيد من المعرفة لكنّه لم يُضف إلى حصيلته غير عديد من الفرضيّات والأسئلة المفتوحة! لقد تعرّف إلى نخبة الباحثين وحاضر -عبر خمسة عشر عامًا- في شتّى جامعات العالم ولم يفوّت فرصة للقاء مستكشف أو بحّار.. غير أنّه لم يقف على مراده قطّ!

***

انتصب البروفيسور أشرف بصعوبة وخطا على الرّمال مستندًا إلى آدم محاولًا أن يسرع من خطوته لكنّ جسده كان أشبه بكتلة معجونة من اللّحم والعظام بعد السّقطة العنيفة التي تعرّضا لها، قال وهو يلهث:

- السُّكان، يجب أن نجد السُّكان!

لاحظ آدم العرج البيّن في ساقه اليسرى فانحنى ليعاينها قلقًا. كان هناك جرح طوليّ قليل العمق وتورّمٌ في الكاحل لكن والده قد احتفظ بحذائه على الأقلّ، همهم البروفيسور متعجلًا:

- أنا بخير، يجب أن نتقدّم.

كان يدفع في اتجاه السير نحو الأشجار في حين استمرّ آدم يتلفّت إلى الخلف في قلق، لم يكن يرتاح لفكرة عبور الغابة القاتمة ويسترجع لمحات من واحد من برامجه المفضلّة «التّائهون»، لقد وجد الأبطال أنفسهم في وضع مشابه بعد أن تحطّمت طائرتهم فوق جزيرة مجهولة، الغابة قد تُخفي مفاجآت غير سارّة والخيار الآمن يكون في البقاء قرب الشاطئ والبحث عن هيكل الطائرة ومحاولة الاتّصال بالسّفينة.

أفضى أخيرًا بما يؤرقه:

- الطّائرة.. ألا يجدر بنا البحث عنها؟

- في وقت لاحق، إن كنّا نريد العيش فعلينا أن نجد السّكان.

لم يناقشه آدم طويلًا فقد بدا واثقًا من فكرته فهو المختصّ بشأن تلك الجزيرة الغريبة على أيّ حال ثمّ إن ذلك النَّفَس المتحشرج الذي يتردّد في صدره بمشقّة أنبأه بأنّه لا يجدر به إرهاقه بمزيد من الشّرح والكلام الذي يستنفد طاقته.

شعر بالرّهبة حين وصلا إلى حدود «الغابة السّوداء»، كان آدم قد أطلق عليها ذلك الاسم للتّو، فقد كانت الأوراق داكنة أكثر من أيّ غطاء نباتيّ عرفه في حياته، مزيد من الاختلافات في الألوان تحت السّماء المنخفضة. تساءل إن كان ذلك كلّ شيء؛ اختلاف في اللّون أم أنّ اللّحظات المقبلة ستكشف عن مزيد من الفروقات؟

بعد أن قطعا أمتارًا قليلة داخل الدّغل ازداد الهواء كثافة من حولهما، كانت الرّطوبة عالية كأنّ مسامّ الأرض ولحاء الشّجر وغطاء الأوراق تنفث هواءً ساخنًا في وجهيهما، لحظ بسرعة صعوبة التقدّم على والده وانهيار رئتيه، كانت أنفاسه قصيرة مجهدة، فكّر أنّ عبور الغابة لم يكن الخيار الأفضل، لكنّ الكهل لم يعرب عن أدنى رغبة في العودة إلى الشّاطئ.

لا يذكر آدم أنّه كان يومًا بذلك القرب الجسديّ من والده؛ أن يتّكئ أحدهما على الآخر وتلتحم الأكتاف وتتعانق الأذرع، أن يشعر بنبضاته تحت راحته وتتردّد أنفاسه في أذنه، لقد بدا شيخًا في تلك اللّحظات بقدر لم يستوعبه، لقد شاخ والده كثيرًا مقارنة بالصّورة اللّامعة للبروفيسور المغامر التي يحملها عنه في لا وعيه!

في المدرسة كان الفخر يلازمه حين تأتي سيرة الآباء وتلتمع أعين أصحابه وأساتذته غبطة وفضولًا أمام ذكر «الرّجل الموسوعة» الذي يحلّ ضيفًا على برامج التليفزيون باستمرار. كان وجهًا أكاديميّا معروفًا يحظى بالاحترام والتّقدير من الجميع، لكن فخر آدم تضاءل في السّنوات الأخيرة

مذ أقعد المرض والدته وتطلّب إقامتها الدّائمة في المصحّة، مع ذلك فإن الرّجل الألمعيّ لم يهدّئ وتيرة أسفاره لمنح أهله صدارة أولويّاته بل لعلّ ترحاله قد تضاعف واستطال حتّى ما عاد يراه سوى أيّام معدودة كلّ شهر!

لقد أدرك في وقت ما أنّ والده بات يفضّل الفرار إلى البعيد ليتجنّب نظرة الألم في عيني زوجته واللّوم في عيني ابنه الشّاب، فتركهما لمصيرهما كلّ هذه السّنوات، غير أنّ والدته لم تسخط عليه قطّ ولم تكن الابتسامة الوديعة تفارق شفتيها حين يذكره أمامها بسوء، كانت تقول دائمًا في حنوّ: «أنت لا تفهمه، ستفعل يومًا ما وستدرك كم هو رجل عظيم!»

في تلك اللّحظات التي يمشيان فيها جنبًا إلى جنب على الطّريق التّرابيّة داخل غابة استوائيّة داكنة لم يشعر بأيّ أثر للعظمة التي أشارت إليها والدته أو الفخر الذي أثاره في دواخله صبيًّا، لكنّ الشّفقة هي كلّ ما ملأ صدره! هذا الرّجل الذي أفنى عمره يبحث عن جزيرة، ها أنّه قد وصلها أخيرًا، وهو يكاد يكون حطامًا، لم يبد قطّ في حال مزرية أكثر ممّا هو عليه الآن.

توقّف البروفيسور فجأة وقد أمسك صدره في ألم، كان من العسير أن يدرك مدى الضّرر الذي طال أعضاءه الدّاخليّة إثر التحطّم الكارثيّ للطائرة المروحيّة وكانا في حاجة إلى الرّاحة واستمرار الحركة لم يُسدهما معروفًا قطّ! انتبه آدم فجأة إلى جفاف حلقه وطعم الملوحة اللّاذع، لو كان يفكّر تفكيرًا سويًّا لكان الآن يتتبع أثر منبع ماء جارٍ أو يبحث في الأحراش عن فاكهة تُؤكل، سارع يقول:

- اجلس هنا، سوف أبحث عن الماء والطعام.

ساعد الرّجل المتهالك على الاستناد إلى جذع سميك لشجرة مُعمّرة، لكنّ والده شدّ على ذراعه يمنعه من المضيّ وقال بصوت مجهد متقطّع:

- لا.. لا ماء ولا طعام بعد، يجب أن نجد السّكان أوّلًا!

استجاب آدم لرجائه على مضض فأقعى على الأرض فوق سجّاد من الحشائش وتأمّل وجه أبيه السّاكن، كان قد أغمض عينيه وأخذ يتنفّس مجهدًا بشفتين منفرجتين؛ شفتين متشقّقتين ويابستين. كانا يحتاجان إلى الماء، دون ماء لن يستمرّا طويلًا لكنّ والده الملهوف يُصرّ بلا منطق أو عقل على تحقيق مجده البحثيّ أوّلًا حتى لو كان ذلك على حساب حياته ذاتها!

تساءل إن كان الليل سيهبط قريبًا، لم تكن الإضاءة الطّبيعيّة تسمح بتمييز أيّ وقت من النّهار كان، في وجود الشّمس كان بوسعه تتبّع حركتها وتحديد الصّبح من الزّوال أو العصر لكنّ كلّ ما يملكه الآن هو التكهّن الأعمى، إذا حالفهما الحظّ فقد تكون أمامهما بضع ساعات بعد ليجدا الماء وشيئًا يقتاتان به.

تمهّل لبضع دقائق حتّى أدرك أنّ والده قد غفا، كان مكدودًا ومستنفد القوى. وقف آدم في تصميم وتلفّت حوله، كان يحتاج إلى أن يضع علامة يُحدّد بها موقعه ثمّ يترك أثرًا حتّى يرجع أدراجه دون أن يتوه، انحنى ليجمع بضع حصيّات بيضاء لكنّه أدرك بسرعة أنّها لن تكون مرئيّة وسط الحشائش إذا ما هبط الظلام. كان يشعر بوخزها في باطن قدميه بعد أن فقد حذاءه في البحر، تفقّد ساقيه، لم يجد أثرًا لأيّ خدوش رغم إحساسه بتنميل مثل دبيبٍ على جلده، لاحظ فجأة الطّين الفضيّ اللّامع الذي التصق بهما فأخذ حفنة وترك أثرًا على جذع الشّجرة التي يرقد تحتها والده ثمّ ابتسم.. كان الطّين الرّمليّ يتوهّج.

ابتعد بحذر عن موقعه وعيناه على موطأ قدميه ودأب على ترك علامات طينيّة بجذوع الأشجار على امتداد الطّريق. كان يتوقّف من حين إلى آخر ويصغي إلى الطّبيعة السّاكنة، لحسن الحظّ لم يتناه إليه غير أصوات العصافير والحشرات التي تئزّ حول الحشائش، لم يبد أنّ كائنات شرسة

قد تتربّص به في الجوار. أخيرًا، ميّز خرير المياه المتدفّقة! هرول في لهفة إلى الجدول القريب ثم انحنى ليغمس كفّيه ويأخذ غَرفة، تذوّق الماء بطرف لسانه ليجده عذبًا زلالًا فأخذ ينهل منه بنهم، شرب طويلًا حتّى ارتوى ثمّ غسّل وجهه وأطرافه وقد تجدّد انتعاشه.

لم تكن السماء قد أظلمت بعد، رفع عينيه بانتباه فأبصر شجيرات بريّة تشبه التّوت، بدت ثمراتها مألوفة، في الدّيار كانت تلك فاكهة تؤكل، التقط قطعة توت حمراء داكنة وتذوّقها، كانت حامضة لكنّ طعمها مستساغ، انبرى يجمع حبّات التّوت ويُلقي قطعة في فمه من حين إلى آخر، حدّق في الكميّة التي تجمّعت بتجويف قميصه المرفوع وقرّر أنّها كافية للوقت الحاليّ، مشى بحذر حتّى لا تتساقط قطع التّوت ثمّ راح يفكّر في كيفية حمل الماء إلى والده.

تطاول لينتزع ورقة عريضة من شجرة قريبة ثمّ انحنى ليصنع منها كوزًا بعمقٍ كافٍ أغطسه في الجدول ليملأه ماءً ثمّ استعدّ للعودة.

سار بهدوء محاذرًا أن يفقد قطرات الماء المترنّحة ممسكًا الورقة المطويّة بكفّ وقابضًا على طرف قميصه الذي يحتضن حصيلة الحصاد بكفّ ثانية ومتتبّعًا العلامات التي خلّفها على الجذوع. بدت رحلة الرّجوع أطول وأشدّ وطأة على أعصابه لكنه حين أبصر الرّجل الذي يغطّ في النّوم لم يغادر مكانه تنفّس الصّعداء.

جلس إلى جواره وقرّب الكوز من شفتيه ليبلّلهما ثمّ سكب الماء في حلقه بجرعات صغيرة تقبّلها أشرف في لهفة، كان لا يزال غائبًا مغمض العينين، بلطفٍ ضغط آدم على حبّة توت ثمّ سكب عصارتها في فم والده وهمس:

- أبي، يجب أن تأكل!

فتح البروفيسور أشرف عينيه الغائمتين ثمّ شعر بالطّعم الحامض على لسانه، في اندفاع يائس بصق الثّمرة بقوّة وصرخ بصوت متهدّج:

- ماذا فعلت؟ ألم أقل ألا تأكل شيئًا؟

حدّق آدم في والده المستشيط غضبًا دون أن يستوعب ثورته، لقد فعل ما تمليه غريزة البقاء لكنّ والده لم يبد سعيدًا لأدنى درجة، تعالى صراخه المختنق مجدّدًا:

- أنت لا تصغي! متى تتعلّم الإصغاء إلى ما يقوله الكبار؟

الكبار! لقد بلغ الثالثة والعشرين منذ بضعة أشهر، لم يعد طفلًا، إنّه شاب بالغ عاقل ومشهود له بالذّكاء وحضور البديهة لكنّ والده البروفيسور الموقّر لا يعتبره بعد من «الكبار» ولا يعامله بما يستحقه من احترام.. نفض كفّيه في وجوم.

جاءه صوت والده المستسلم وهو يقول:

- صلِّ.. صلِّ أن نجد السُّكان قبل أن نموت!

***

غادرت سفينة «الأسطورة» سواحل البحر الأحمر في منتصف سبتمبر باتّجاه الجنوب. باستثناء طاقمها كان عدد قليل من المسافرين على متنها، صاحبها «مايك راسل» وابنته اليافعة مانويلا كانا ضمن المرتحلين هذه المرّة. لسنوات خلت كان مسارها الطبيعيّ يمتدّ من البحر الأحمر إلى السّواحل الآسيويّة مرورًا بالهند والصين وسنغافورة حيث تُشحَن السّلع وتُفرَّغ في مختلف الموانئ عبر مسيرة غدوّ ورواح تدوم شهرًا ونيّف، لكنّ الرّحلة الحالية كانت من نوع آخر.

مايك، مثل أيّ مستثمر ناجح، كان يقتنص الفرص فور ظهورها وقد لاحت له فرصة مميّزة حين ظهر البروفيسور أشرف عند مكتبه، لم يكن المحيط الهندي منطقة مجهولة بالنّسبة إلى طاقمه لكنّ تمشيط رقعة المحيط دون إحداثيات واضحة بحثًا عن جزيرة موهومة كان ضربًا من الجنون! بيد أنّه كان الرّجل الذي يتمتّع بقدر كافٍ من الاندفاع ليلمح بريق الفرصة في عتمة الغموض.

قبل أن يتوصّل البروفيسور أشرف إلى اتّفاقه مع مايك راسل كان قد جرّب طرقًا ملتوية أخرى. لم تكن الوظيفة الأكاديميّة تصنع ثروة رغم المجد والتقدير والاحتفاء الاجتماعيّ، بعد خمسة وعشرين عامًا من العمل لم تكن مدّخراته قادرة على تمويل رحلاته الاستكشافيّة، لم تقتنع الجهات الحكوميّة بجدوى ضخّ المال في التّفتيش عن جزر ما يعتقد البروفيسور المهووس بأنّ أحدًا قبله لم يكتشفها بعد اختراع الأقمار الصّناعيّة والرّادارات وأجهزة تحديد المواقع!

كانت الرّحلات السّابقة برفقة بعض صائدي الجوائز، هؤلاء كانوا يبحرون بحريّة للعثور على السّفن والطائرات القابعة في قعر المحيطات لكنه لم يكن يقدر على إملاء المسار في تلك الحالات إنّما يرضى بمرافقة السّفن المغامرة لعلّها تقترب بالقدر الكافي من جزيرته.

في النهاية لم تُسفر رحلاته مع صائدي الجوائز عن نتيجة تُذكر لكنّها فتحت عينيه على كنوز العالم المخفيّة! في بحار العالم ترقد ثروة تقدّر باثنين وثلاثين مليار دولار جرّاء غرق السّفن القديمة، فكّر.. لو أنّه لم يشغل شبابه بالبحث عن جزيرته هذه فربّما كان ليجد صيد الكنوز تحدّيًا ملائمًا ولعلّ الكنوز المكتشفة كانت لتكفيه مؤنة البحث عن تمويل! لكن لكلٍّ مسيرته في الحياة وقد كانت رحلته الخاصّة عبر بوّابة الخرائط.

ولم يكن صيد السّفن الغارقة بأيسر من التّفتيش عن الأرض الخفيّة، كثيرًا ما كانت الرّحلات ترجع خالية الوفاض أو تكتفي باستخراج حطام طائرة تجاريّة ما بلا قيمة، غير أنّ القبطان «سنكلير» كان يروي بحسرة قصّة فرصته الأكبر دون انقطاع.

«فلور دي لا مار» سفينة حربية برتغالية كانت عائدة من حملة عسكرية عام 1511 في ملقا، وهي مركز تجاري رئيسي في جنوب غرب ماليزيا، محملة بغنائم الحرب بما في ذلك الكنوز التي جاءت من نهب القصر الملكي لسلطان ملقا. تعرضت السفينة لعاصفة شديدة ويقال إن نحو أربعمئة رجل قد فقدوا حياتهم وغاص مع السفينة قرابة ثمانين طنًا من الذهب والمتعلّقات الثمينة الأخرى بقيمة اثنين ونصف مليار دولار بأموال اليوم.

في سنة 1992 كان «سنكلير» يعمل على استخراج الغنيمة لكنّ الحكومة الإندونيسية اعترضت طريق سحب الذهب من مياهها، قال سنكلير: «لقد ظلوا يريدون نسبًا أعلى وأعلى مما سنستردّه، لم يعد الأمر مجديًا من الناحية المالية، كانت لدينا فكرة جيّدة عن مكان السفينة ولكن بدا الأمر وكأننا نصنع قدرًا من يخنة المحار ونكتشف أن لدينا صديقًا جائعًا للغاية».

على سطح «الأسطورة» استلقى آدم على مقعده المريح محاولًا الاسترخاء. لم يكن يختًا سياحيّا من الدّرجة الرّفيعة لكنّ مقصورة الطّابق الثالث التي حظي بها كانت مريحة بشكل كافٍ، لم يختر الإبحار بملء إرادته، دفعت به والدته دفعًا واستحلفته كي يفعل، قالت بصوت متأثّر بعد نوبة من السّعال:

– عليك أن تقترب من والدك أكثر، تعرَّف عليه وشاركه اهتماماته، إذا رحلتُ يومًا فلن يبقى لأحدكما إلا الآخر!

كان يشقّ عليه أن يخلّفها وحيدة لكنّها ألحّت:

– أسبوعان، سأكون في انتظارك بعد أسبوعين، لن تندم، أعدك!

لكنه ندم ألف مرّة منذ وضع قدميه على متن السّفينة!

بعد أن تدرّجت «الأسطورة» في مياه البحر الأحمر حتّى مضيق باب المندب ثمّ خليج عدن وبحر العرب، أفضت إلى المحيط الهنديّ الفسيح. كانوا في عرض المحيط منذ بعض الوقت؛ تصبح المياه أكثر عمقًا ولونها ذا زرقة داكنة فتوحي بظلمة بعيدة في الأغوار السّحيقة، لم تكن أشعّة الشّمس تصل إلى الطبقات السفلى حيث تختفي مجاهل ساحرة وغامضة، وقد أخذ يستشعر الملل والرّهبة مذ أصبح المحيط فضاءً واحدًا شاسعًا لا أثر فيه ليابسة أو حياة أخرى، كأنّهم وحدهم تمامًا أمام وحش الماء المتقلّب!

وقد كان يخشى وحش الماء ويرهبه، في أعماقه كانت رواسب تجربة قديمة منذ أيّام منزل الشّاطئ لا تزال تؤثّر في قراراته، وكان الإبحار مناقضًا للتّحذيرات الدّاخليّة التي يتردّد صداها في أذنيه بإلحاح.

بعد والدته، كانت مانويلا طرفًا حاسمًا في مغامرته.

جاءت الصّهباء الأعجميّة لتحلّ طالبة زائرة في جامعته منذ سنتين، كان شكلها جديرًا بشدّ الأنظار إليها تلقائيًا لكن شخصيّتها ما صنع شعبيَّتها داخل قاعات المحاضرات وخارجها. مانويلا تحبّ السّفر، وهي رحّالة متمرّسة، زارت نصف بلاد العالم قبل أن تبلغ العشرين، فيما يفتخر آدم بمكانة والده وتضلّعه في علم الجغرافيا، كانت مانويلا تحفظ خارطة العالم مثل كفّ يدها بناءً على تجربة شخصيّة ثريّة، كانت الرّحالة الشابة تسير على خطى أسلافها المستكشفين البرتغاليين «فاسكو دي غاما» و«فرديناند ماجلان»، بثبات وعزم.

وانبهر آدم بصورتها الفتيّة النّابضة بالحياة، لا ينكر، فتقرّب إليها كما فعل شُبّان كثر من الدّفعة، لكنّه نجح في الحصول على انتباهها، ليس بفضل مزاياه الفريدة ولكن لاهتمامها بنشاط والده! كان جلّ ما يتحدّثان بشأنه هو رحلتها السّابقة أو المقبلة وأبحاث والده. يعترف لنفسه أنّها لم تكن صنفه المفضّل من الفتيات لكنّ حرصه على صداقتها له دافع مختلف، لم يفتأ يستشعر الفضول تجاهها، ألم تكن الابنة المثاليّة التي يتمنّاها باحث مثل والده؟

في النهاية، كانت هي مَن اقترح لقاء الرّجلين، وبفضل مساعيها الحثيثة وجد البروفيسور أشرف سفينة تقلّه إلى مكان التّنقيب الذي يريده.

شعر بخطوات والده تقترب، إن كان الهدف من الرّحلة أن يتقاربا فإنّهما لم يتبادلا سوى جمل عابرة خلال اليومين الماضيين. كان البروفيسور مشغولًا في محادثات مطوّلة مع المستثمر والقبطان، يشرح الإحداثيات التقريبيّة ويرسم صورًا بيانيّة ويضع خطّة التمشيط المستحيلة، قال آدم في اندفاع:

- هل هي مميّزة إلى هذه الدّرجة.. جزيرة الأشباح هذه؟

ابتسم أشرف، ثمّ أخذ يشرح كأنّه يلقي محاضرة على طالب بليد:

- هذا النّوع من الجزر بعضها يطلق عليه «الجزر الوهميّة» وهي تلك التي توهّم البحّارة وجودها في زمن ما ثمّ عدّلت الخرائط الحديثة لتحذفها.. بعضها الآخر يسمّى «الجزر المفقودة» لأنّها كانت موجودة ثمّ اختفت بسبب العوامل الطبيعيّة، ومن المتوقع أنّ عددًا من جزر أرخبيل المالديف ستختفي خلال بضعة عقود بسبب ارتفاع مستوى المياه.. وما زالت الجهود حثيثة لإيقاف المدّ ورفع مستوى اليابسة رغم أنّ الحلول مثيرة للجدل؛ إنّهم يسحبون

الرّمال من قعر المحيط لتعزيز اليابسة وتمديد عمر الجزر المهدّدة خمسين أو مئة عام أخرى! وهناك أيضًا «الجدران البحرية» وهي جدران حقيقيّة من الخرسانة الثابتة تُبنى حول الجزر لتحدّ من أثر العواصف وهجمات الأمواج!

لوّح آدم بكفّه على مضض، فليكن، أيّا ما كان، لم يكن مهتمًّا، كان ساخطًا لاضطراره خوض رحلة سخيفة وراء وهم بلا قيمة لكن بدا أنّ مايك راسل كان مخبولًا بالقدر الكافي ليجاري والده في أحلامه غير الواقعيّة. الباحثون والمغامرون كلاهما يتمتّع بقدر من الجنون والسّذاجة، تحتاج إلى أن تكون ساذجًا لتعتقد أنّ في العالم مكانًا لم يصل إليه أحد قبلك ومجنونًا لتنفق أموالًا طائلة وسنوات طويلة في سبيل هذا الوهم!

– لكن هذه الجزيرة.. أنا واثق أنّها لم تختف.. ليس بعد! رقعتها ممتدّة وعليها مرتفعات جبليّة وتلال.. لا يمكنها أن تختفي بهذه السّهولة!

سرحت نظرات آدم إلى البعيد، لم يكن هذا نوع التقارب الذي توقّعه؛ أن يستمع إلى محاضرات والده المملّة! طلبت منه والدته أن يفهمه أكثر، إنّه يحاول، لكنّ ذلك الشّغف الشّديد بعالم خياليّ يثير حنقه! إنّهما حقيقيّان على الأقل، هو وأمّه، لكنّ البروفيسور لا يراهما، هناك أشياء أكثر أهميّة تشغل رأسه الأشيب وتنخر عقله الهرِم.

– هل سمعت عن أطلانتس؟

عادت نظرات آدم إلى والده في استفهام..

– هل تقصد مدينة الكنز الخياليّة التي صنعت حولها أعمال سنيمائية ودراميّة؟

أومأ أشرف ثمّ أضاف:

- لقد جاء ذكر أطلانتس في بعض النّصوص القديمة لأفلاطون، الفيلسوف الإغريقيّ.. على أنّها جزيرة كانت موجودة في وقت ما من الماضي. يعتقد بعض العلماء أنّها بالفعل تقع جنوب إسبانيا حيث كشفت صور الأقمار الصّناعيّة التي التُقطت للمنطقة أنّ خصائص الأرض هناك تُطابق الوصف الذي ذكره أفلاطون في «المدينة الفاضلة»، وأنّها ربّما تعرّضت للدّمار نتيجة فيضانات بين عامي 500 و800 قبل الميلاد.. ويقال أيضًا إنّ الخرائط القديمة التي رسمها البحّار المستكشف كولومبس -قبل رحلته الشّهيرة لاكتشاف القارّة الأمريكيّة- تُظهر رسمًا لجزيرة كبيرة غير موجودة في الوقت الحاليّ قد تكون أطلانتس نفسها.. وكما تعلم فإن الأسطورة قد أسالت حبرًا كثيرًا وخُلِّد اسمها في الروايات والأعمال الدراميّة منذ عصور طويلة!

هزّ آدم رأسه في استسلام ثمّ قال بلهجة ساخرة:

- وجزيرتك هذه، هل تحمل اسمًا ما؟ هل ذُكِرَت في أسطورة إغريقيّة أم رومانيّة؟

ابتسم أشرف برحابة صدر وقال:

- ربّما أكون أوّل من يُسمّيها ويذكرها في أبحاث تفصيليّة فيسعى الباحثون والبحّارة وراءها في المستقبل وينسج الروائيّون قصصًا عنها!

- ماذا عن الأقمار الصّناعيّة؟ ألم تُحدّد موقع أطلانتس؟ لماذا لا تُظهر موقع جزيرتك هذه إذًا؟

غامت نظرات البروفيسور للحظات ثمّ هزّ كتفيه:

- لا أدري! هناك أمر غامض ومستعصٍ بشأنها، إنّها لا تظهر في الصّور.. ولا يمكن رصدها بالرادار.. ولن تعرف أنّها بالقرب منك حتّى تصطدم بها!
- «الجزيرة المراوغة»!

ابتسم أشرف وهزّ رأسه:

- اسم مناسب فعلًا، سأضعه على قائمة الأسماء المحتملة.

***

لقد غلبه النّعاس وحين فتح عينيه أدرك أنّه قد غفا دون أن يشعر، هبط الليل على الجزيرة فجأة، لم يكن الليل المتوقّع في عتمة غابة استوائيّة فالظّلمة لم تكن بالشدّة المتخيّلة، لعل السّحب المنخفضة كانت تنشر أشعّة القمر لتصنع طبقة رقيقة من الإنارة الطّبيعيّة اللّيليّة، لكنه لم يعتقد أنّ القمر وحده قد يصنع هذا القدر من الضياء، من وراء طبقات السحب الكثيفة، لتغدو مثل أمسية على لهيب الشّموع أو توهج شفق قطبي بلون واحد! وكانت الرّمال الفضيّة عند قدميه تستمرّ في التألق عاكسة الإضاءة من حولها.

التفت إلى حيث استقرّ والده في نوم وديع وعميق، تأمّل وجهه المجعّد ورأسه الذي اشتعل شيبًا، سحنته الباهتة، أطرافه المستسلمة، صدره الذي يرتفع ويهبط بصعوبة، لقد كره خلافهما منذ ساعات، أراد أن يثبت نفسه، أن يكون مفيدًا، لكن لا شيء يرضيه!

قرقرت معدته بصوت بيِّن، كان يشعر بوخزات الألم، ولعلّ ذلك ما أيقظه؛ ألم المعدة، كره أن يعترف بأنّ والده ربّما كان على حقّ، لعلّه أعلم منه بخفايا الحياة البرّيّة، فقد سبق أن سمع عن أنواع سامّة من الفطر والأعشاب، لم يكن من الحكمة أن يتناول أيّ شيء في نظام بيئيّ مجهول،

السُكّان كانوا سيعلمون بالتّأكيد أيّ الأنواع سامّ وأيّها صالح للأكل، والآن.. يشعر بتوعّك شديد كأنّه قد تناول طعامًا فاسدًا!

انحنى فجأة وأخذ يتقيّأ بقوّة، كانت معدته متشنّجة، لقد تناول كثيرًا من التّوت البريّ، أفرغ ما في جوفه من عجين لزج ذي صبغة حمراء مثل الدمّ ممزوج بالندم والجزع، حملق في قيئه فزعًا.. لم يعرف إن كانت فاكهة صافية أم أنّه قد تقيّأ دمًا! اتّسعت حدقتاه واضطربت أنفاسه وكاد يستسلم لنوبة هلع، لكنّ التشنّجات لم تتوقّف وجعلته ينحني من جديد وهو يشدّ على معدته متوجّعًا.. لفظ العصارة الهضميّة الصفراء والمرّة، تتخلّلها خيوط حمراء، وما زالت معدته تتقلّص بعنف، تقرصها هواجس الليل!

حين انتهت وصلة القيء.. كان متعرِّقًا وفارغًا تمامًا، تملّكه ذلك الإحساس بالخواء والبلادة كأنّ جسده هيكل متهالك وخالٍ من أيّ شيء بالدّاخل، علِق طعم المرارة في حلقه مثل شوكة طويلة حادّة ليزيد من إحساسه بالجفاف.. ماء.. كان يحتاج إلى ماء. ما زالت العلامات التي تركها على جذوع الأشجار تتوهّج في ظلمة الليل، استقام وخطا بهدوء متتبّعًا المسار المتعرّج عبر الأشجار مرّة أخرى حتّى وصل إلى الجدول، ملأ بطنه بالماء البارد ثمّ تنهّد في إعياء، بصق في كفّه بحذر بعد أن تمضمض بتفانٍ، خشي أن يُبصر الدّم في لعابه لكنّه بدا صافيًا.

مرّة أخرى، صنع كوزًا من ورق الشّجر وملأه ماءً من أجل أبيه ثم قفل راجعًا. فكّر: إن لم يجدا أحدًا.. كم من الوقت يقدران على الاستمرار أحياء؟ أين يمكن أن يكون السُّكان؟ على مسافة ميل؟ أكثر أو أقل؟ في أيّ اتّجاه؟ عادت إليه نظريّته القديمة: ربّما تجدر به العودة إلى الشّاطئ والبحث عن حطام الطّائرة، ربّما يتمكّن من الاتّصال بالسّفينة أو العثور على بعض المؤن الآمنة.

سكب قطرات الماء برفق بين شفتي والده، بدا أنّ الرّجل الكهل يعاني أعراضَ الجفاف، فكّر آدم أنّ عليه الرّجوع إلى الجدول في رحلة أخرى ليزوّده بمزيد من الماء، لمست أنامله بعفويّة بشرة عنق الكهل النّائم فتراجع مصعوقًا، عاد ليضع راحته على جبينه مستطلعًا فهالته الحرارة المتدفّقة من جسده.. كان محمومًا! بلّل آدم طرف قميصه بالماء وأخذ يمسح وجه والده برفق قبل أن يلحظ تلك البثور الصّغيرة التي ظهرت أعلى صدره وأسفل عنقه، اتّسعت عيناه دهشة.. هل كان والده يعاني حساسيّة ما؟ حساسيّة تجاه التّوت البرّيّ؟!

الحمى والبثور بدت علامات واضحة لحساسيّة الطّعام، لكن لا وجود لمضادّات الحساسيّة في البريّة ولا أيّ نوع من الدّواء الخافض للحرارة! مسح وجهه بكفّه في عصبيّة، لقد كان عليه أن يتصرّف في ظلّ انهيار والده.. تمنّى لو كان البروفيسور أشرف قادرًا على توجيهه بقدر ما، لو كان أشرف الصّافي مكانه، ماذا كان ليفعل؟ هل كان ليعود إلى الطائرة؟

لكنّه قد أخبره بالفعل بما ينبغي له عمله..

«جِد السُّكان!»

***

سيطر الضّباب على سطح السّفينة، حين استفاق آدم صباحًا كانت الرؤية شبه منعدمة، هبط ضباب أبيض كثيف على البحر غدرًا واستباحت الظلمة الأعين. طفا الغموض في الهواء من جميع الاتّجاهات ليحجب مشهد المحيط مترامي الأطراف.

غادر آدم مقصورته بهدوء متوجّس الفؤاد ومشى حتّى السّطح يراقب ما يحدث. كانت محرّكات السّفينة متوقّفة والمرساة ملقاة في عمق المحيط

بالفعل، لن يبحر القبطان في هذا الطّقس إلّا إذا عرف أين يتّجه، لكنّها رحلة تمشيط لعينة بلا وجهة محدّدة!

في مقدّمة «الأسطورة» كان والده يتجادل مع المستثمر بصوت عالٍ. مشى باتّجاههما في فضول وريبة، كان مايك راسل متجهّمًا في حين يحاول البروفيسور أشرف إقناعه بشيء ما..

- لا يمكنني المجازفة، الطيّار لن يوافق على اصطحابك!
- لا أحتاج إلى الطيّار.

قال أشرف بثبات ثمّ أضاف في عنادٍ:

- أحمل رخصة قيادة!

ضحك آدم خلفهما، فاستدارا ناحيته، قال ساخرًا:

- رخصة قيادة؟ إنّها طائرة مروحيّة يا أبي!

حدّق فيه أشرف بانزعاج، لم يبد أن النّكتة تثير رغبة الضّحك لديه، أخرج محفظته الجلديّة واستظهر بطاقة تحمل صورته الشخصيّة، تفحصّها مايك، قبل أن ينتزعها آدم من كفّه في ذهول؛ رخصة قيادة طائرة خاصّة، كان يدرك أنّه لا يعرف والده جيّدًا لكنّه لم يتوقّع هذا النّوع من المفاجآت، قال أشرف شارحًا:

- حين كنت أستاذًا زائرًا في الولايات المتّحدة الأمريكية، كانت هناك خدمة التنقّل عن طريق الطّائرات المروحيّة الخفيفة لاكتشاف الجزر القريبة، وقد رأيت من المفيد أن أحصل على الرّخصة لتيسير التنقّل؛ استئجار طائرة لنهاية الأسبوع كان أمرًا متاحًا هناك..

أعاد آدم إليه الرّخصة ولَمّا تنطفئ نظرة الدّهشة في عينيه.

قاطعهما مايك:

- لكنّني لن أؤجّر الطائرة لك! مخاطر التّحليق في هذا الجوّ عالية!
- سأدفع لك!
- كيف ستدفع؟ هل تعلم كم تُكلّف طائرة مثل هذه؟
- سأدفع بعملة نادرة لن تقدر على رفضها.

لمعت في عيني مايك نظرة مكر وطمع، بدا أنّه يدرك أيّ نوع من العملات يتحدّث عنه البروفيسور، تنهّد ثمّ قال مستسلمًا:

- ما دمت مُصرًّا.

نزل البروفيسور إلى مقصورته ثمّ رجع بعد دقائق وبيده صندوق خشبيّ بحجم راحة اليد، فتحه مايك بحرص وألقى نظرة متفحّصة على ما يحتويه، ثمّ أشار إلى المروحيّة الرّابضة في مهبطها أعلى السطّح وقال:

- الطائرة في عهدتك.

أومأ أشرف شاكرًا ثمّ استدار إلى آدم، انتابه التردّد لحظة، كان يدرك مقدار الخطر الّذي يحفّ تلك الرّحلة، سأله برفق:

- آدم.. هل تودّ مرافقتي؟

فتح آدم شفتيه وهمّ بالاعتذار ثمّ لمح مانويلا التي جاءت لتنضمّ إلى ثلاثتهم في مقدّمة السّفينة، لم تكن الفكرة تستهويه لكنّه تهوّر دون سبب، هل أراد إثارة إعجاب الفتاة الصّهباء؟ إثبات جدارته؟ من المؤكّد أنّ لنظراتها المُربكة دورًا في تسرّعه، وإن علم على الفور أنّه سيندم قريبًا!

أومأ برأسه وهو يتبع خطوات والده في ثبات. على منصّة الهبوط كانت مروحيّة رصاصيّة ذات مقعدين شديدة الخفّة من طراز «سيكاري 8» تربض في انتظارهما. وهو يتّخذ مكانه على مقعد مساعد الطيّار، ابتسم آدم

لنفسه متهكّمًا، ربّما كان هذا نوع المغامرة الذي سيجعلهما أقرب؛ رحلة في طائرة مروحيّة عبر المحيط في يوم ضبابيّ منعدم الرؤية!

جلس أشرف أمام دفّة القيادة، احتاج إلى بعض الوقت ليتعرّف مكوّنات لوحة المفاتيح أمامه وفوق رأسه ويراجع مراحل الإقلاع في ذهنه، همس آدم لنفسه ساخرًا: «بالتّأكيد كلّ الطّائرات تتشابه مثل السيّارات!»، بعد دقائق قليلة زمجر محرّك الطّائرة وأخذت المروحة في الدّوران.. «لعلّها تتشابه فعلًا، في نهاية الأمر!»

حين أقلعت المروحيّة في خطّ متعرّج شعر بمعدته تلتصق بحلقه واستبدّ به الدّوار والرّعب، لم يكن قد ركب مروحيّة من قبل فضلًا عن مروحيّة يقودها والده! تمسّك بأصابع متيبّسة بهيكل الطّائرة الجانبيّ وازدرد لعابه في عصبيّة، كان آخر ما لمحه من زجاج المروحيّة الجانبيّ قبل أن ترتفع الطّائرة في الهواء ويحجبها الضّباب هو ابتسامة مانويلا المتشنّجة، لوّحت له بكفّها تلويح مودِّع.. لم يدر ما الذي كان يدور بخلدها في تلك اللّحظة، هل تمنّت أن تكون مكانه؟ أم لعلّها أشفقت عليه من المصير المجهول الذي يتربّص به؟

في المقابل، كان والده في منتهى التّركيز والثّقة أيضًا، سأله آدم في شكّ:

- ما الذي يجعلك مُصرًّا على الإقلاع في هذا الجوّ؟

أجاب أشرف باقتضاب وعيناه تتابعان المسار باهتمام:

- الضّباب!

لم يكن ذلك هو الجواب الذي توقّعه، غير أنّه لم يحاول أن يقاطع تركيزه مجدّدًا. استسلم لقدره الذي جعله يغامر بخوض تجربة متهوّرة على متن سفينة تشقّ المحيط بلا وجهة ثمّ داخل علبة معدنيّة تطير عن طريق سيفين دوّارين!

كيان للنشر

أفضل دار نشر مصرية ٢٠٢١

أفضل ناشر عربي ٢٠٢٣

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زوروا موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01001872290/ 01000405450

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية، يمكنكم متابعتنا على حسابات التواصل الاجتماعى التالية:

KayanPublishing